

بين منهجي السماع العربي و الوصف الغربي دراسة تأصيلية مقارنة في أسس المنهجين

أ. رشيد حليم :
المركز الجامعي الطارف

الملخص

للدروس اللغوي العربي القديم خصائصه العلمية المنهجية التي مازالت تمد الدرس اللساني بأفكار علمية جادة و مهمة.

و قد أسس هذا الدرس على أصول شهيرة ذكرها القدامى ممثلة أساسا في منهج السماع الذي تقترب طرائقه في التنظير ما جد عند المحدثين من نظريات.
هذه المقالة تعالج جانب من هذا التقارب المنهجي.

عرف المجتمع الإنساني ظواهر كونية متنوعة ، شاركتها الوجود و الحياة ، ولعل أقدمها على الإطلاق ، خلقت معه ، و قطنت داخله هي اللغة ، ظاهرة مارسها منذ نشأ ، تواصل و تفكيراً غير أن غلغلة النظر في وجودها ، و سبر أغوار عناصر تختلف عن حقيقة وظيفتها الأساسية، فلم يترعرع بسط القول فيها إلا بعد قرون خوالي من ظهورها، و تواصل الحديث عنها حتى أصبح ضرباً من المعرفة و علماً من علوم الوجود يسمى باسمها: علم اللغة.

و هذا الاصطلاح العلمي حديث (1) لم يتبلور برسمه الحاضر إلا بعد أن استفاد من جهود القدامى الذين ساهموا في وضع أصوله و تثبيت قواعده، حتى أصبح علماً له أدواته و مناهجه و غاياته، لقد أصبح هذا العلم حلقة من حلقات النشاط الإنساني و معلماً من الثقافة البشرية يهفو إلى و ثوقية الضبط العلمي الدقيق و يصبو إلى تملك منهج صارم ، يتقيد بجوهر ثابت، هو : اللغة : وسيلة و غاية ، دراسة و مدروسة، و بعبارة علمية مقننة: اعتبار اللغة وحدها بؤرة البحث و التنظير ، و هو لا يختلقها ، و لا يعين واحدة، و لا يخص أخرى ، معاضلاً بينها أو مفاضلاً. إنه يلتفت إلى اللغات جميعها من أجل تحليلها و وصفها متعضداً بأساليب المنهجية الصارمة التي تتعاقب الأحكام المسبقة الشرود ، و مشفع بمقصد علمي بعيد ، وهو : الحصول على معلومات حول اللغة بشكل كلي و عام و الإيضاح عن المتغيرات من وظائفها.

و حدد علم اللغة الحديث (2) شرعة مساراتها في الالتفاف حول ميدانه : اللغة بوصفها مميزة بخاصتين - على غيرها- من الظواهر الكونية:

أ- الخصيصة الملفوظية Aspect phonétique

ب- الخصيصة الوظيفية Aspect fonctionnel

وأدرك علماء العربية القدامى هذا التمايز الذي ألمع هذه العلامة الكونية المعظمة و أشار أحد كبراء العربية إلى دلالتها بقوله: أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (3).

وتنبه أوائل باحثينا إلى هذه المزاجية التي تحملها هذه الاداة، و عزموا على متابعتها بالبحث و الاستقصاء والنظر في أحوال مركباتها ، انطلاقا من وسطها الطبيعي الذي فيه درجت وعلى ألسنة أهلها نطقت. و نعتقد أن هذا المسلك العلمي البادي في منهجية درسهم ضاهى ما يقوم به الباحثون في زماننا، حيث ركزوا في أبحاثهم على سلوك اللغة نفسها كما استقرت على السنة أهلها. ومن ثمة تسهل مهمة الباحث اللغوي وتستبين مهمته في وصف الحقائق اللغوية كما هي مرصودة و تحليلها، واستخراج الأصول و القواعد منها (4).

قلنا ، ومثل هذا المنحى مشهود في تراثنا اللغوي، و لم تكن ثقافتنا اللسانية خلوا منه، وبناء على هذه الأهمية، عزمنا على إظهار وجاهته، عقيدة ربط المعاصرة بالأصالة، وعقيدة علمية في إذكاء الوعي العلمي بنفعية أفكار أسلافنا وجديتها، استجابة صريحة لظروف معرفية و لدها اللهج بقافة الغير والتبشير بسلطانها واستنفار العقول لإحضانها و استعلاء شرعتها.

إيماننا عميق بضرورة استثمار مرجعياتنا المنهجية و ما قدمته من أسس معرفية تنفخ في علاقتنا بتراثنا روحا جديدة تسمح بترصد قواعد الجدة و تحويل قوى النفع فيها، و إسقاط المفاهيم المستحدثة عليها.

و في هذا المجال نجد صدى لبعض المناهج اللسانية في دراسات القدامى، تحديدا في آثارهم المدونة (5)، و قد ظلت شائخة بموضوعاتها تطاول ما يظهر في الغرب من أبحاث لغوية جادة و عميقة (6) و تصحح ما وصلوا إليه من نتائج (7).

إن حركة التأصيل المنهج في العربية قديمة من حيث الانطلاقة التاريخية، إذا ارتبطت بمكونات الحضارة الاسلامية أساسا، و كانت ترمي - تلك الحركة- إلى وضع القوانين اللغوية التي تكون أساسا لاستنباط الاحكام ، و لهذا كان لزاما على كل متقدم لهذا الميدان المعرفي أن يطلع على طرائق الاستدلال التي حوتها أضرب العلوم الإسلامية ، و هي عند مؤطريها القدامى : سماع و إجماع و قياس (8) و أبدل بعضهم الإجماع باستصحاب الحال. قال ابن الأنباري [ت 577 هـ] . نقل و قياس و استصحاب حال و مراتبها كذلك ، و كذلك استدلالها (9) .

و مما لا شك فيه أن هذا التأصيل يدل على ابتكار علماء العربية لمناهج تيسر الكشف عن طرائق البحث، و مشروعية العمل بها، و هي على حد تفصيل أحد الباحثين: أصول النظر العلمي، و قد تعلقت هذه الأصول بين الوصفية و المعيارية، حيث تتمثل الوصفية في السماع وتصنيف المادة اللغوية المسموعة ، بينما تتمثل المعيارية في القياس و التعليل (10).

وبهذا ، فمنهج السماع أو ما يطلق عند بعضهم بمنهج النقل (11) له أقطار تقاطعه مع بعض أسس المناهج الحديثة ، خاصة الوصفي الذي استعلاه الدارسون و لحبوا بنظرياته (12) و الحق نقول، أن بعض قواعد هذا المنهج مرسخة في تأصيل علمائنا القدامى ، و أعين بالتخصيص في أصول منهج السماع.

وعندئذ يصبح التساؤل حول طبيعة هذا المنهج مشروعاً و التساؤل عن ضروب التداخل بينه و بين المناهج اللسانية ، كذلك محققاً ؟

ونعتقد أن الإجابة عن السؤالين واجب علمي ، و ايصال الإجابة و ربطها بالدرس العلمي المعاصر واجب حضاري اولا و علميا ثانيا.

1- مفهوم السماع :

أ- لغة : السماع أو السمع مصدر الفعل السمع ، و السمع حس الأذن (13). و في التنزيل العظيم ، قوله تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمُنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ " و فسرهُ الإمام اللغوي أحمد بن يحيى (ثعلب) (ت 291هـ) معناه خلاله ، فلم يشتغل بغيره (14) و قد سمعه سمعا ، و السماع بهذا المعنى حاسة من الحواس الفطرية ، والعضوية المسؤول عن إنجاز هذه العملية هو الأذن بالاشتراك مع الأعضاء ، فهو عملية لا شعورية لا يتحكم الإنسان فيها ، حيث يولد المولود مزودا بمقدرة على التقاط كل الأصوات الواقعة في حيز الاستقبال ، إثر نموه الطبيعي المتدرج بدء بما لا يستطيع تفسيره ، و فهمه إلى غاية أن يصبح قادرا على إدراك كل ما يسمعه ، و بناء على هذه المجموعات يمتلك الطفل المعطيات اللغوية الأولية ، فيستوعبها على ضوء ما توفر لديه من استعدادات فطرية ، كما يقول ميشال زكريا: في ضوء هذا الانطباع نشبه ذهن الطفل بآلية مبرمجة هيأتها الطبيعة البشرية لإتمام عملية التعلم (15)

و مثل هذا التعريف يقترب من مباحث علم النفس الإدراكي ، حيث يحاول التعرف على قدرة الطفل على اكتساب اللغة متى ؟ و كيف ؟ و هو أيضا يقع تحت مقاصد علم النفس اللغوي (psycho l'inguist) حيث يتطرق إلى أوجه العلائق بين الفكر و اللغة (15) منها دراسة سيكولوجية اللغة من زاويتين: * زاوية التعلم * زاوية الاتصال (17) و برزت أهمية المنهج عند العرب القدامى في ما ذكره ابن خلدون [ت 808 هـ] حين أبرز أهميته قائلا : " السمع أبو الملكات اللسانية " (18) و هو يقوم في البدء على محاكاة طرائق الخطاب المتداولة و الشائعة في الوسط الاجتماعي و هو اشد ارتباطا بالواقع المنطوق ، فهو يزواج ارتباطين ، الجنسي الاجتماعي ، و الإقليمي ، و هذا الأداء الإجرائي يلخصه ابن جني منظرا إياة في قاعدة أصولية : الا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه و شكر سعيد أبوه ، علمت برفع أحدهما و نصب الآخر، الفاعل من المفعول، و لو كان الكلام شرحا واحدا لا ستم أحدهما من صاحبه (19)

وتبلور هذا الفهم بعد ظهور النظرية التوليدية التحويلية على يد نعوم تشومسكي الذي يرى أن عقل الطفل يحتوي على خصائص فطرية أو ما يمكن أن ينعى بالملكة الفطرية التي تجعله قادرا على تعلم أي لغة إنسانية، و من هنا فله استعداد فطري لان يكون قواعد لغته من خلال الكلام الذي يسمعه بصورة إبداعية (20) و من ثمة ارتبطت اللغة بطبائع المتكلمين، وهي بذلك صيغة وراثية مكتسبة و قد غالى علماء العربية خصيصة الطبع و الفصاحة عندما ربطوها بعنصر الجنس و البدارة.

و تطبيقا للقاعدة التي قال بها العرب و تشومسكي ، نذكر هذا المثال نقله ابن جني عن ابي حاتم السجستاني (ت 250 هـ) قال : "قرأ علي أعرابي بالحرم قوله تعالى : (طبيي لهم و حسن مآب)، فقلت له : طوي ، فقال : طبيي ، فأعدت فقلت: طوي ، فقال : طبيي ، فلما طال علي قلت : طوطو ، فقال : طبي ، طبي ، أفلا ترى إلى هذا الأعرابي كيف نبا طابعه عن ثقل الواو إلى الياء فلم يؤثر فيه تلقين و لا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز و لا تمرين وما ظنك به إذا خلى مع سومه ، و تساند إلى سليقته و نجره " (22) و هذا ما اعتقده أحد الغربيين حين اعتبر الطبع ميزة نفسية مكتسبة بالوراثة، فأرى : ' أن الفصاحة قد ترجع إلى عوامل جنينية أو وراثية (23)

ب- اصطلاحا :

أبان علماء العربية قديما على المعاني و الدلالات التي لصقت بهذا المنهج و كشفوا عن أصوله و ضوابطه. و أول لغوي لاحظنا قد تطرق إلى توضيح مفهوم السماع ابن فارس [ت 377 هـ] ، الذي فصله بقوله " تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه و غيرها، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، و تؤخذ تلقنا من ملقن، و تؤخذ سماعا من الرواة الثقات ، ذوي الصدق و الأمانة و يتقى المطنون (24) و هذا التوجيه العلمي فيه شيء من إشارات التفضيل نلخصها :

-التأكيد على السماع الفطري : الاكتساب الطبيعي للغة عند الطفل

-السماع التعليمي : يصبح أداة معرفية صناعية للتعلم

-السماع المنهجي : أداة وظيفية ، صالحة للبحث في الدرس العربي و غيره.

و تلقف ابن مالك [ت 672 هـ] هذا الفهم ، فزاده إبانة ، فوضح الغاية منه ، إنه يوثق ما نقله حملة اللغة و جماعها من فصيح كلام العرب، و لهجاتها (25)، وفي هذا يؤكد "هو الاعتداد بما قاله الفصحاء الذين يوثق بهم و يطمئن إليهم و كان بعض العلماء يرون أن لغات العرب كلها جديرة بالاعتبار ،ولا يصح رد إحداها بالأخرى (26)

و في هذين التعريفين انتقال إلى الاهتمام بالعامل البشري و العامل الجغرافي في أثناء التعامل مع الظاهرة اللغوية ، و قد أسس العرب القدامى هذا المنهج على خطوات هذا العامل ، و حرصوا على تحديد مواطن اللغة السليمة ، و هو إجراء علمي أكد عليه سوسير و سماه اللسانيات الخارجية ، يقول في هذا الشأن " إن من يباشر مسألة علاقة الظاهرة اللسانية بالمكان يخرج من مجال اللسانيات الداخلية و يدخل في مجال اللسانيات الخارجية (27).

و لا شك في أن اهتمام الظاهرة اللسانية الخارجية بالمكان يجد مبررا له في تنوع الحدث اللغوي و اختلافه من منطقة جغرافية إلى أخرى (28)

وأنعم بعض اللغويين العرب النظر في أصول هذا المنهج واعتبروه منطلق البحث، وإن اختص بالعربية فيصلح أن يكون لغيرها من اللغات، وذلك مما نبه إليه أحد اللغويين المحدثين حين بين وظائفه قائلا " السماع عملية صعبة فهو مجموعة من الأعمال تبدأ بالتأملات و تنتهي بالكشف عن القواعد، و يقوم بين البدء والانتهاه بالتصنيف و التقسيم و الاستقراء (29).

هذا المنهج المقدم في التنظير اللغوي ، مطلوب في ذاته (30) فهو يسد حاجيات درس العربية و يكشف عن أسرار نظامها اللغوي ، فالسماع هو أحد المصادر التي عنى بها العلماء في جمع اللغة و رصد حقائقها و السماع في اللغة العربية يعني أيضا تلقي اللغة من أهلها و يقابله القياس (31).

هذان منهجان أساسيان في البحث اللغوي العربي ، و لكن السماع أسبق منه تطبيقا و وظيفة فلا يصح الثاني دون الأول ، فهما متلازمان كما أشار ابن جني فيما نقله

السيوطي : " من قال إن اللغة لا تعرف إلا نقلا فقد أخطأ ، فإنها قد تعلم بالقرائن أيضا ، فإن السامع إذا سمع قول الشاعر (بسيط).

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ** طار إليه زرافات ووحदानا.

يعلم أن زرافات في لغة بعض العرب بمعنى الجماعات (32) ، بيد أن السيوطي نفسه عارضه في ذلك ، و أشار إلى أسبقية النقل على العقل ، فهم نفسه على أن الأول وصفي و الثاني معياري، قال : "الطريق إلى معرفة اللغة إما بالنقل المحض كأكثر اللغة أو استنباط العقل من النقل (33)

وعملية هذا المنهج تتجلى في إحاطته بمنطوق اللغة، معتبرا إياها كائنا لا يحي منعزلا، ولا يتوقف عن النمو ، فهو خاضع لسلطان التطور، و من ثمة ظل هذا المنطوق معدن الأحكام وتمكن هذا المنهج أن ينبسط على أسس علمية شبيهة بما أصلته المناهج الحديثة من حيث الأساليب و الوظائف، هو أول ما يركز على دور اللغوي في تكامل عمله و انسجامه، بدء بملاحظة الظواهر اللغوية الشائعة وطرائق الاداءات المتنوعة التي قد تنسب إلى التنوع اللهجي ثم يعمد إلى معالجتها بالتصنيف و التبويب و انتهاء بإظهار قواعدها و ضوابطها (34)

2- مقارنة تأصيلية بين السماع و الدرس اللساني:

و تتجلى هذه المقاربة في بعض الأسس التي سار عليها رواد منهج السماع في درس العربية قديما ، و التي وجدت صداها في البحث اللساني الحديث ، حيث أكد على ضوابطها القائمون على هذه المباحث ، منها :

أ - الاتصال بالواقع اللغوي:

لقد تفتن علماء العربية الأوائل إلى أهمية الاتصال بالبيئات اللغوية للوقوف على مورد اللغة و التعرف عن كثر على مستويات التخاطب بين أفراد القبائل ، باحثين في الوقت ذاته عن المتكلم الانموذج (35) ، فقد نبه الجاحظ [ت 255 هـ] على هذه الخصيصة المثالية التي تعلق بها بعض البداءة من الأعراب قال: إنه ليس في الأرض كلام هو

أمتع و لا أنفع ولا أنق و لا ألد في السماع و لا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق لسان و لا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء(36) و بدأ أعمل اللغويين في درس العربية وفق هذا الأساس الذي سطره ، فانطلقوا في جمع الآثار اللغوية من أفواه أصحابها ، و لهذا الغرض، التحقوا ببوادي الحجاز و العراق بغية ملاقات الأعراب في مواطنهم و مشافهتهم ، فعاش أبو عمر و بن العلاء [ت 154 هـ] البدو أزيد من أربعين سنة و سجل عنهم من المسموعات ما ملأت بيتا له إلى قرابة سقفه (37)

و دون الخليل [ت 175 هـ] من منطوقهم ما يقرب من عشرين رطلا (38)، و ذكر ابن الأنباري [ت 577 هـ] أن الكسائي [ت 189 هـ] قد أنهى خمسة عشرة قنينة حبرا في تسجيل المرويات عن الأعراب ناهيك عما حفظه (39) و اشتهر الأصمعي [ت 216 هـ] بقوة حافظته و سعة ذاكرته ، قيل إنه حفظ اثني عشرة ألف أرجوزة ، و كان قد ساهم في وضع بعض المعاجم المختصة في الخيل و النبات ، (40) ، رغم عفته و ظلغه فقد تنكر له بعض متعصي البصريين ورموه بأوصاف مهينة (41).

و ألح الرواة و اللغويون العرب على ملامسة الواقع اللغوي الحاضر و كشفه بمشاهدة الافراد و الاستماع اليهم و هم يعبرون عن أغراضهم بكل عفوية و النقل عن قبائلهم نزيلة البوادي و الحضر.

و مثل هذا الصنيع كان مما حث عليه أصحاب المنهج اللساني الحديث كما بينه أحد منظريه تتجه النظرية اللسانية الحديثة إلى الإنسان صاحب اللغة أو ما يطلق عليه المتكلم السامع في مجتمع لغوي متجانس ، يعرف لغته كاملة و هذا الشرط ضروري لأن الهدف هو معرفة القوانين التي تجعل الإنسان يتميز بهذه القدرة على اللغة (42)

كما تزامنت عملية النقل اللغوي مع طرائق اللغويين في جمع المادة اللغوية و توثيق الآثار المحكية بعد ما أدى الخطاب الشفوي دوره في إذكاء شعلة التسابق نحو تسجيل المعرفة المسموعة و أصبح هذا المنهج رائد المناهج وأحدثها يطبق في علم العربية، كما أصبح المنهج الوصفي أول المناهج يطبق في الدرس اللساني، حيث يسعى كما يسعى الأول إلى

تسجيل الواقع اللغوي تسجيلاً أميناً بهدف الإمام بمستويات الخطاب و كشف حقائق النظام فيه (43)

ب- مشافهة المصدر البشري :

احتذى العلماء جانبا من الدراسة الميدانية عند جمعهم للغة فقد انتقلوا إلى المصدر اللغوي ، و اتصلوا به مباشرة، و جعلوا كلامه المعتاد و حديثه اليومي دليلاً منهجياً اعتمدوا عليه في بناء أصولهم، و قد يختلف المصدر البشري كأن يكون متكلماً عادياً بسطاً أو ذا منزلة و هذه الطريقة السليمة سطرها سيويوه [ت 180هـ] من قبل فكثيراً ما يرد حديثاً عن الاعراب ممن سمع مباشرة منهم أو من حدثه عنهم، ولسان حاله يقول :

سمعنا بعض العرب يقول (44)

و سمعنا من العرب (45)

و ذلك قول العرب سمعناه منهم (46)

و سمعنا بعض العرب الموثوق بهم (47) الحديث عنهم

و من الفصحاء الذين تحدث إليهم سيويوه و قد بلغوا شأواً في فصاحة اللسان و قوة البيان ، نذكر أبا فقعس و أبادثار و ابا الجراح.

و تيمن اللغويون بعده هذه النهجة ، و أضافوا إليها شيئاً من إبداعهم ، فقد سن ابن جني مجموعة من القواعد التي يجب ان تتوفر في المصدر البشري (48)، و منها ان يكون مشهوداً له بفصاحة اللسان ، و يعيش بعيداً عن الحاضرة ، و قد روى الأصمعي بعض الألفاظ ارتجلت من بدويين موغلين في البداوة هما رؤبه و أبوه ، فذكر كلمة (الجبر) و تعني الملك ، و كلمة (ماريه) و معناها اللؤلؤية ، قال ابن جني: إن الاعرابي إذا قويت فصاحته و سمت طبيعته تصرف و ارتجل ما لم يسبقه أحد قبله فقد حكى عن رؤبه و ابيه أنهما كان يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها و لا سبقا إليها (49)

و لم يقف عند حد الاتصال بل تعداه إلى اختبار المصدر اللغوي و امتحان لغته، و هل تأثرت بمستحدث الظروف، و قد تكررت لقاءاته مع أبي عبد الله الشجري أحد فصحاء قبيلة عقيل نزيلة العراق ، من ذلك هذه المطارحة العلمية التي يتقمص فيها ابن جني

دور الاستاذ الذي يطبق مخططا بيداغوجيا للتأكد من سلامة لغة الممتحن و بقاء فصاحته قال : و سألته يوما فقلت له كيف تجمع (دكانا) فقال: دكاكين، فقلت: سرحانا، قال: سراحين، فقلت : فقرطانا؟ قال: قراطين، فقلت: فعثمان، قال: عثمانون، فقلت له: هل قلت أيضا عثمانين؟ قال: إيش عثمانين ؟ أ رأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته، و الله لا أقولها أبدا (50)

و خلاصة هذا الحوار العلمي المؤسس الذي يعرف الدرس الديدكتيكي قيمته أن الاستاذ خلص إلى يقين : أن ذلك المصدر اللغوي مازال محافظا على سلامة لغته ، ودله على ذلك تفريقه في الصوغ القياسي الفطري بين الجموع ، فكان جمع التكسير لغير العاقل و السالم للعاقل.

و هذا الإتجاه في تتبع المورد اللغوي لا يختلف عما سنه الوصفيون المحدثون فهاهو ماريوباي يقرر : إن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، و هو الذي يعرف فنيا باسم الراوي (51) فهؤلاء الرواة يمكن أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله و تعييده (52)

ج- التقريبات الوصفية :

و نقصد بها الأحكام الصادرة مباشرة من معاينة مستوى المتكلمين ، و طرائق نسيج كلامهم ، و ما دخل عليه من جديد، و ما تعاوره من خطل ، و ذلك أن العرب أمة كثيرة القبائل و هي لا تعرف الإستقرار بل تعيش على الترحال و التنقل ، و قد تكون لغاتها في تلك الرحلات مؤثرة أو مؤثرة أو حدث فيها تعديل ، و في هذا حرص علمي على معرفة الصورة الواقعية للكلام كما ينطق و صحة ابنيته و سلامة تراكيبه ، و قد روت المصادر نماذج من ذلك (54).

و لم يبق هذا الأسلوب عملا نظريا بل طبقه العلماء و أحسن ما رصدناه في هذه الطريقة ، طلع ابن جني إلى ضبط اللغة السليمة باستخدام ذلك الأسلوب المنهجي.

وللوصول إلى خلاصة تقريره اللغوي و حكمه على المادة اللغوية المسقاة، اختار فردين من قبيلة واحدة، و لكنهما متفاوتتين في فصاحتهما و طبق عليهما هذا الاختبار و قد اختار له أسئلته ، قال سألت مرة أبا عبد الله و معه ابن عم له دونه في فصاحته و كان اسمه غصنا ، فقلت لهما كيف تحقران حمراء ؟ فقالا : حميراء فقلت سوداء ؟ قالا : سويداء ، وواليت من ذلك أحرفا و هما يجيئان بالصواب ، ثم دسست في ذلك (علباء) فقال غصن (علباء) و تبعه الشجري فلم هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال : آه عليي ورام الضم في الباء (54) إلا أنهم أشد استنكارا لزيغ الإعراب منهم بخلاف اللغة لأن بعضهم قد ينطق بحضرته بكثير من اللغات فلا ينكرها إلا أن أهل الجفاء و قوة الفصاحة يتناكرون خلاف اللغة تناكرهم زيغ الإعراب (55).

وهذا التمثيل اللغوي، فحمراء وسويداء على وزن (فعلاء) مؤنث حقيقي و(علباء) مؤنث غير حقيقي إذ همزته للإلحاق زائدة (56). و التقرير الذي قصده ابن جني هو معرفة أصول هذه الكلمات من حيث النوع ، ووظف قاعدة أصولية معروفة في الصرف : التصغير يرجع اللفظ إلى أصله وحقيقته، و لذلك تنبه ابو عبد الله الشجري إلى المستوى الفصيح و الصحيح في بنيتي اللفظتين ولم يدرك ابن عمه غصن ذلك، و النتيجة أن الأول أفصح و لغته جدية بالأخذ و النقل.

و يقتررب هذا التقرير من قواعد التحليل في المنهج التوزيعي حيث حاول رواده قصر البحث على التغيرات الفونولوجية و النظم على أساس شكلي (57) هذا واضح في عمل ابن جني فالحق أن ما قرره لم يكن تأويلا أو افتراضات خارجة عن واقع اللغة ، إنما كان تقريرا و صفييا محضا كما يسمع و يرى. و بعد هذا التحليل في أيجاد أوامر التقارب بين منهج السماع و بعض أسس المناهج اللسانية الحديثة نخلص إلى القول :

- إن ثقافتنا اللغوية ثرية بكثير من الأفكار العلمية التي مازالت نافعة للدرس اللساني ، نحتاج إلى نفضها و تشكيلها حسب المعطيات الحديثة.

- إن القول بجدية المناهج اللسانية الحديثة لا يبرر سبق الغربيين لاكتشافها ، ذلك أن الناظر في درس العربية يقف على تقدم اللغويين العرب في هذا الضرب من المعرفة.
- يعتبر منهج السماع من أهم مناهج الدراسة في كثير من علوم الحضارة الإسلامية التقليدية و العقلية و نلح على تتبع بعض خطواته فيها ، ذلك أن المناهج الحديثة قد ربطت بأصول المعرفة القديمة المتجددة ، فلا حرج أن نعيد بعثه و إظهار الجديد فيه.

الهوامش و المراجع

- القرآن الكريم على رواية ورش ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1988
- 1- يقع اللبس في مصطلح علم اللغة الذي استخدم في ثرائنا العربي للدلالة على أغراض لغوية منها:
أ- دراسة الألفاظ و مدلولاتها، ينظر. عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية طبعة دار النهضة العربية ، بيروت ، ص 37 و تمام حسان ، علم اللغة بين التراث و المناهج الحديثة ، طبعه دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، ص 09
- ب- هو العلم الذي تنضوي ضمنه الأغراض اللغوية فهو بيان موضوعاتها، ينظر ابن خلدون ، المقدمة تح مجموعة من العلماء ، دار الرائد و دار الفكر 1980 ص 487
- 2- له مسميات أخرى ، أشهرها و أهمها ، علم اللسان و اللسانيات و الألسنية و الألسنيات و اللغوية كل ذلك ترجمة للمصطلح الإنجليزي *linguistics* ، ينظر أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث طبعة عالم الكتب ، القاهرة 1995 ص 31 و ما بعدها.
- 3- ابن جني ، الخصائص ، تح ، على النجار طبعة دار الكتاب العربي ج 1 ص 33.
- 4- د. حلمي خليل ، مقدمة لدراسة علم اللغة ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1995 ، ص 07 .
- 5- أثنى محمد حسن عبد العزيز على كتاب الخصائص لابن جني لما حوى من آراء لغوية صائبة ، قال عنه إنه كنز في أصول اللغة و مناهج البحث فيها ، ينظر مصادر البحث اللغوي ، دار الكتاب الجامعي للنشر و التوزيع ط 1 ، ص 1997 ص 256.
- 6- د. عز الدين إسماعيل ، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت 1976 ، ص 334
- 7- د. عبد الرحمن الحاج صالح ، المدرسة الخليلية الحديثة و الدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي ، وقائع ندوة جهوية ، أبريل 1987 الرباط ، طبعة دار الغرب الإسلامي ص 373
- 8- الخصائص ج 1 ص 189 .
- 9- الإعراب في جدول الإعراب و لمع الأدلة تح سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، دمشق 1957 ص 81
- 10- د. حلمي خليل العربية و علم اللغة البنوي ، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية 1995 ص 32.
- 11- السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ، محمد قاسم ، مطبعة السعادة ط 1 1976 ص 84.
- 12- منهم د. محمد عيد ، كتابه في اصول النحو العربي طبعة عالم الكتب 1987 ، ص 17 و ما بعدها.
- 13- سورة ق / 37
- 14- ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة دار صادر مادة (سمع) ج 8 ص 162.
- 15- مباحث في النظرية الألسنية و تعلم اللغة طبعة المؤسسة الجامعية لدراسات و التوزيع لبنان ص 27.

- 16- داود عبده ، دراسات في علم اللغة النفسي ، مطبوعات جامعة الكويت 1984، ص 17
- 17- د. أحمد حساني ، مباحث في اللسانيات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 24.
- 18- ابن خلدون : المقدمة ، ص 183
- 19- الخصائص ج 1 ص 35
- 20- حلمي خليل ، اللغة و الطفل ، دار المعرفة الجامعية ص 30
- 21- الرعد /29 و الآية المتواترة (طوبى لهم و حسن مآب) و قراءة الكسر (طبيي) شادة ، ينظر ابن خالويه ، مختصر شواذ القرآن ، مكتبته المتنبي ، القاهرة ص 71 و قال أن في قراءة (طوبى) عشرون قولاً و دلنا على أنها موجودة في كتابه إعراب القراءات و عللها ، و هي غير مذكورة بتاتا في أي من كتبه (الحجة ، إعراب ثلاثين سورة ، ليس في كلام العرب)
- 22- الخصائص ج 1 ص 75، 76.
- 23- د.حنفي بن عيسى ، الاسس النفسية لتعليم العربية مجلة همزة وصل ، وزارة التربية الجزائرية 1991 ، ص 33
- 24- ابن فارس الصاحي في فقه اللغة العربية مسائلها و سنن العرب في كلامها ، قدم له مصطفى الشويبي ، مؤسسة بدران للطباعة و النشر ط 1 ، 1963 ، ص 62
- 25- وضع ابن جني بابا في ذلك سماه "اختلاف لغات العرب وكلها حجة " ينظر الخصائص ج 2 ص 10
- 26- ابن مالك ، شرح التسهيل ، تح عبد الرحمن السيد ، طبعة الأغلو المصرية 1974 ج 1 ص 48
- 27- دي سوسير ، دروس في الألسنة العامة ، ترجمة صالح القرمادي و رفيقيه ، طبعة الدار العربية للكتاب ، تونس . ليبيا ص 285
- 28- صنف بعض اللغويين المحدثين البيئات العربية إلى صنفين حسب التغيرات الحركي في بنية الكلمة و رتبوا : ضم و كسر وفتح و جعلوا للحضر الفتح مقارنة بالحركتين الأوليتين ، و له الكسر مقارنة بالضم و للبدو الضم و الكسر و هذا ترجيح يحتاج إلى متابعة علمية دقيقة ، ينظر القائلين بهذا التنظير .
- د- إبراهيم أنيس في اللهجات العربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط 5، 1973 ص 56.
- د- علم الدين الجندي ، اللهجات في التراث ، الدار العربية للكتاب - تونس - ليبيا ج 1 ص 260
- د- عبده الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، دار المعرفة الجامعي 1996 ص 100.
- د- رمضان عبد التواب التطور اللغوي مظاهره و علله ، مكتبة الخانجي 1997 ط 3 - القاهرة ص 57
- و الملاحظ أن هذا التفسير قد استلهم من أفكار المستشرق الألماني بريجشتراسر التطور النحوي للغة العربية ، أخرجته و صححه رمضان عبد التواب ، مكتبته الخارجي ط 4- 2003 ص 26
- 29- محمد خير الحلواني ، أصول النحو العربي ، ص 15 ، 16
- 30- هذا المنهج نتاج الدراسة الشرعية ، فهو منهج القراء ينظر ما نقله ابن الجزري عن أبي عمرو الداني [ت 444 هـ] و ملخصة ، أئمة القراءة لا تعمل إلا على الأثبت في الأثر ، ينظر النشرح/1 ، ص و هو منهج

- المحدثين ينظر مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة و منهجها في دراسة اللغة و النحو ط ، دار الرائد العربي 1986
ص. 48 ،
- 31- محمود سمير نجيب اللبدي ، معجم المصطلحات النحوية و الصرفية مطبعة أمزيان الجزائر ص. 106
- 32- المزهري في علوم اللغة ، تح محمد جاد الموالى المولى و رفيقه طبعة المكتبة العصرية ، بيروت ج 1 ص 59 و
هذا الرأي الذي ذكره السيوطي غائب فيما عندنا من كتب ابن جني ، و الذي نرجحه أن يكون السيوطي نقله
حفظاً من كتب ابن جني المفقودة.
- 33- م ن 1 ص 57
- 34- تمام حسان اللغة بين المعيارية و الوصفية ص 152 و ما بعدها.
- 35- عمل الرواة بهذا القانون ، فانتخبوا قبائل مشترطين فيها سلامة اللغة - العروبة- الانعزال ، ينظر ، سعيد
جاسم الزبيدي ، القياس في النحو العربي ط ، دار الشروق عمان ص. 121
- 36- المحاضر ، البيان و التبيين ، قدم له علي أبو ملحم ، دار مكتبة الهلال ط ح بيروت 1992 - ج 2 ص
135.
- 37- ابن خلكان وفيات الأعيان و إنباء أنباء الزمان ، تح ، إحسان عباس ، مطبعة بيروت 1969 ، ج 3 ،
ص. 466
- 38- عبد الله بن حمد الخثران ، مراحل تطور الدرس النحوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1993 ، ص
170.
- 39- ابن الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تح ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، مكتبة الأندلس ، بغداد
99.
- الذي عني بوضع () 40sémantique- يمكن تصنيف هذا العمل العلمي ، ضمن خطوات علم الدلالة ،
Mounin - ينظر (les champs semantique) المفردات في مجالات تسمى الحقول الدلالية
- (G) clefs pour la linguistique P 144
- Gurand (P) op- cit - P : 75
- Lyons (J) élément de seman tique P 208
- 41- السيوطي ، الاقتراح ، ص 81
- 42- د- عبده الراجحي النحو العربي و الدرس الحديث ، بحث في المنهج ، دار النهضة العربية 1979 ، ص
114 ، 115
- 43- د- محمد محمد داود ، العربية و علم اللغة الحديث ، دار غريب القاهرة 2001، ص 96
- 44- سيبويه ، الكتاب ، تح ، عبد السلام محمد هارون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 63 1988 ، ج
1 ص 309
- 45- م ن ج 1 ، ص 349
- 46- م ن ج 1 ص 412

- 47- م ن ج 1 ، ص 423
- 48- الخصائص ، ج 2 ، ص 21 ، و ينظر (باب في الشيء يسمع من العربي الفصح ، لا يسمع من غيره)
- 49- م ن ج 2 ، ص 25
- 50- م ن ج 1 ، ص 242
- 51- مصطلح عربي أصيل مرسخ قي تراثنا العلمي ، يقابله باللغة الفرنسية : l'in formant
- 52- ماريوياني : أسس علم اللغة ، ترجمة أحمد مختار عمر ، ط 3 عالم الكتب ، القاهرة 1987 ، ص 120.
- 53- الزبيدي ، لحن العامة ، تح ، عبد العزيز مطر ، دار المعارف القاهرة 1968 ص 57.
- 54- الروم : مصطلح صوتي ، معروف عند علماء التجويد و القراءات و عند النحويين و هو تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها فيسمع لها صوت خفي يدرك معرفته الأعمى بحاسة سمعه و يكون غالبا في المضموم و المكسور.
- عندنا نعبّر عنه بهذه المعادلة الرياضية : الروم = $1/3$ حركة ينظر غانم قدوري الحمد ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد مطبعة الجلود ط 1 ، بغداد 1986 ، ص 510.
- 55- الخصائص ج 2 ص 76 ، 77
- 56- الفارسي ، التكملة ، تح ، كاظم بحر المرجان ، طبعة عالم الكتب 1999 ص 350.
- 57- النحو العربي و الدرس الحديث ص 111.